

بَيِّدَق، أَبُو بَكْر بن عَلِي الصَّنْهَاجِيّ، كَاتِبُ مَذَكَّرَاتٍ حَوْلَ أَوَّلِي مَرَاكِلِ تَارِيخِ المُوَحَّدِينَ* . عُرِفَ اسْمُهُ أَوَّلَ الأَمْرِ مِنْ حَلَالِ الرُّوَايَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا عَنْهُ كُلُّ مَنْ ابْنِ خَلْدُونِ فِي كِتَابِ العَبَرِ، وَالمُؤَلَّفِ المَجْهُولِ لِكِتَابِ الحُلَلِ المَوْشِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مِنْ حَلَالِ فِصُولِ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي نَسَخَهَا ابْنُ قَطَّانٍ، مُؤَلَّفِ نَظْمِ الجُمَانِ. لَكِنَّ مَجْمُوعَةَ الأَوْرَاقِ الَّتِي اكْتَشَفَهَا لِيَفِي بِرِفْنَسَال¹ فِي مَكْتَبَةِ الإِسْكُورِيَالِ (رَقْمِ 1919)، وَنَشَرَهَا فِي <الوِثَاقِ غَيْرِ المَنْشُورَةِ عَنْ تَارِيخِ المُوَحَّدِينَ²> أَخْرَجَتْ اسْمَ بَيِّدَقٍ مِنْ غِيَاهِبِ النِّسْيَانِ. نَاحِظُ فِي كِتَابِ بَيِّدَقِ المَذَكَّرَاتِ الوَاقِعِيَّةِ لِشَخْصٍ كَانَ لَهُ دَوْرٌ فَاعِلٌ فِي الأَحْدَاثِ الَّتِي يَرُويهَا، وَكَانَ مِنْذُ البَدَايَةِ أَحَدَ المُوَحَّدِينَ الأَوَائِلِ. يَمَكِّنُنَا أَنْ نَدْرِكَ مِنَ اللَّمَحَةِ الأَوَّلَى أَنَّ هَذَا الكِتَابَ لَيْسَ سَجَلًا عَادِيًّا لِلأَحْدَاثِ؛ فَالمَعْلُومَاتُ الجَدِيدَةُ الوَارِدَةُ فِي كُلِّ صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِهِ، وَإِسْنَادُهَا، تَتِيحُ لَنَا إِمْكَانِيَّةَ إِكْمَالِ مَعْرِفَتِنَا- الَّتِي لَمْ تَكُنْ حَتَّى الآنَ شَيْئًا يُذَكِّرُ- كَمَا يَنْبَغِي عَنْ المُوَحَّدِينَ فِي شِمَالِي أَفْرِيْقِيَا. لَيْسَ فِي هَذَا المَخْطُوطِ البَالِغِ سِتًّا وَثَلَاثِينَ صَفْحَةً سَقَطَاتٍ، لَكِنَّ المُؤَسِّفَ هُوَ أَنَّ بَدَايَتَهُ مَفْقُودَةٌ، وَلَيْسَ لِلكِتَابِ عَنوَانٌ. تَسْتَنْدُ مَعْلُومَاتُنَا عَنْ بَيِّدَقٍ عَلَى أَقْوَالِهِ هُوَ نَفْسُهُ فِي كِتَابِهِ، لَكِنَّ هَذِهِ المَعْلُومَاتُ مَبْهَمَةٌ إِلَى حَدٍّ لَا يُتِيحُ لَنَا كِتَابَةَ سِيرَتِهِ. بَعْدَ وَصُولِ المَهْدِيِّ [= مُحَمَّدُ بنِ تومَرْتِ، مُؤَسِّسُ دَوْلَةِ المُوَحَّدِينَ] إِلَى تُونِسَ، نَرَى بَيِّدَقَ فِي عِدَادِ مَرَاقِبِيهِ، كَمَا نَرَاهُ أَيْضًا ضَمَّنَ أَتْبَاعِ عَبْدِ المُؤْمِنِ [بنِ عَلِيٍّ، حَكَمَ: 527-558هـ، خَلِيفَةُ ابْنِ تومَرْتِ]. لَقَدْ كَانَ مِنَ المَقْرَبِينَ وَالعَامِلِينَ فِي بِلَاطِيهِمَا، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّهُ لَمْ يَدُونْ فِي كِتَابِهِ إِلَّا مَا شَاهَدَهُ وَمَا سَمِعَهُ. أَضَافُ بَيِّدَقَ- الَّذِي كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ ابْنِ تومَرْتِ المَتَحَمِّسِينَ- فِي أَثْنَاءِ رِوَايَتِهِ لِلأَحْدَاثِ، حِوَادِثِ خَارِقَةٍ، لِلتَّأَكِيدِ عَلَى رِسَالَةِ ابْنِ تومَرْتِ الإِلَهِيَّةِ، وَعَلَى أَنَّ اخْتِيَارَهُ لِعَبْدِ المُؤْمِنِ خَلِيفَةً لَهُ، إِنَّمَا كَانَ أَمْرًا مَقْدَرًا. لَسْنَا مَتَأَكِّدِينَ إِنَّ كَانَ قَدْ رَافَقَ شَيْخَهُ [= ابْنِ تومَرْتِ] مِنَ الشَّرْقِ [إِلَى الغَرْبِ]. فِي كُلِّ الأَحْوَالِ لَا يَزَالُ اسْمُ بَيِّدَقِ الفَارِسِيِّ المَعْرَبِ، مَسْتخْدَمًا حَتَّى الآنَ فِي أَوْسَاطِ بَرْبَرِ الجَنُوبِ اسْمًا لِأَحْجَارِ الشَّطْرَنْجِ. المُوَكَّدُ أَنَّ اللُّغَةَ الأُمَّمَ لَبَيِّدَقٍ هِيَ البَرْبَرِيَّةُ، وَأَنَّهُ كَانَ لَا يَجِيدُ العَرَبِيَّةَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ وَفَرَةُ المِصْطَلَحَاتِ العَامِيَّةِ، وَكَذَلِكَ العِبَارَاتُ البَرْبَرِيَّةُ الوَارِدَةُ فِي النِّصْرِ، وَهَكَذَا فَإِنَّ أَبَا بَكْرَ بَيِّدَقَ الَّذِي كَانَ خَادِمًا وَفِيًّا وَمَطِيْعًا، وَبَعِيدًا عَنْ أَيِّ طَمُوحٍ أَوْ مَأْرَبٍ سِيَاسِيٍّ، وَعَاشَ فِي الظِّلِّ، خَادِمًا بِإِخْلَاصٍ المَهْدِيِّ وَعَبْدَ المُؤْمِنِ، وَحَتَّى [أَبَا يَعْقُوبَ] يوسُفَ الأَوَّلِ [حَكَمَ: 558-580، خَلِيفَةُ عَبْدِ المُؤْمِنِ]- كَمَا أَنَّ بَعْضَ رِوَايَاتِهِ تَأْتِي عَلَى ذِكْرِ هَذَا المَخْدُومِ- اخْتَفَى فِي نَهَايَةِ المَطَافِ فَجَاءَ مِنْ دُونِ أَيِّ ضِجَّةٍ أَوْ شَهْرَةٍ عَنْ مَسْرَحِ حَيَاةِ المُوَحَّدِينَ، كَمَا دَخَلَهُ فَجَاءً.

¹-E. Lévi-Provençal

²-Documents inédits d'histoire almohade

المصادر والمراجع:

أجنبيّ،.....

/أ. هوئيّتشى ميراندا (د. الإسلاميّة)/